مقدمة

أدب اللغة

أدب اللغة ما أثِرَ عن شعرائها وكتَّابها من بدائع القول المشتمل على تصور الأخيلة الدقيقة، وتصوير المعاني الرقيقة، مما يهذب النفس ويرقق الحس ويثقف اللسان. وقد يطلق الأدب على جميع ما صنف في كل لغة من البحوث العلمية والفنون الأدبية، فيشمل كل ما أنتجته خواطر العلماء وقرائح الكتاب والشعراء.

والآداب العربية أغنى الآداب جمعاء؛ لأنها آداب الخليقة منذ طفولة الإنسان إلى اضمحلال الحضارة العربية. فما كانت لغة مُضرَ بعد الإسلام لغة أمة واحدة، وإنما كانت لغة لجميع الشعوب التي دخلت في دين الله أو في كنفه، أودعوها معانيهم وتصوراتهم، وأفضوا إليها بأسرار لغاتهم، ثم جابت أقطار الأرض تحمل الدين والأدب والحضارة والعلم، فصرعت كل لغة نازلتها وَوَسِعَتْ علوم الأولين وآداب الأقدمين، من يونان وفُرس ويهود وهنود وأحباش، واستمسكت على عَرْك الخطوب تلك القرون الطويلة، فشهدت مصارع اللغات حولها وهي مرفوعة الرأس رابطة الجأش ترث نتاج القرائح وثمار العقول من كل أدب ونِحْلة، فكانت لغات الأمم على اختلافها كالجداول والأنهار، تتألف، ثم تتشعب، ثم تتجمع، ثم تصب في محيط واحد هو اللغة العربية.

تاريخ الأدب:

تاريخ الأدب علم يبحث عن أحوال اللغة وما أنتجته قرائح أبنائها من بليغ النظم والنثر في مختلف العصور، وعما عرض لهما من أسباب الصعود والهبوط والدثور، ويعنى بتاريخ النابهين من أهل الكتابة واللسَنِ ونقد مؤلفاتهم وبيان تأثير بعضهم في بعض بالفكرة والصناعة والأسلوب.

ذلك تعريف تاريخ الأدب بمعناه الأخص، أما تعريفه بمعناه الأعم فهو وصف مسلسل

مع الزمن لما دون في الكتب وسجل في الصحف ونقش في الأحجار تعبيراً عن عـاطفة أو فكرة، أو تعليماً لعلم أو فن، أو تخليداً لحادثة أو واقعة. فيدخل فيه ذكر من نبغ من العلماء والحكماء والمؤلفين وبيان مشاربهم ومذاهبهم وتقدير مكانتهم في الفن الذي تعاطوه ليظهر من كل ذلك تقدم العلوم جميعاً أو تأخرها.

فائدة تاريخ الأدب:

لتاريخ الأدب الأثر البالغ في حياة الأمة. فإن المحافظة على اللغة وما فيهـا من ثمار العقل والقلب أحد الآساس التي يبني عليها الشعبُ وحدته ومجده وفخره. فإذا حرمتَ شعباً آدابه وعلومه الجليلة الموروثة فقطعتَ سياق تقاليده الأدبية والقومية حرمتَـه قوام خصـائصه ونظام وحدته، وقُدتـه إلى العبوديـة العقلية وهي شـر من العبوديـة السياسيـة، لأن استعباد الجسم مرض يمكن دواؤه، ويرجى شفاؤه، أما استعباد الروح فموت للقوميـة التي لا يقدر على إحيائها طبيب.

تقسيم تاريخ الأدب:

التاريخ الأدبي وثيق الصلة بالتاريخ السياسي والاجتماعي لكل أمة، بل قل إن كليهما لازم للآخر مؤثر فيه ممهد له. غير أن الأول إنما يسبق الثاني كما تسبق الفكرة العمل والرأي العزيمة، فكل ثورة سياسية أو نهضة اجتماعية إنما تعدها وتمدها ثورة فكرية تظهر أولاً على ألسنـة الشعراء وأقـلام العلماء لقـوة الحس فيهم، وصفاء النفس منهم؛ ثم ينتقـل تأثـرهم وتطورهم إلى سائر الناس بالخطابة والكتابة فتكون الثورة أو النهضة.

لذلك آثرنا أن نجاري كثرة كتابنا في تقسيم تاريخ ادابنا إلى خمسة أعصر على حسب ما نال الأمم العربية والإسلامية من التقلبات السياسية والاجتماعية وهي:

(١) ـ العصر الجاهلي، ويبتدىء باستقلال العدنانيين عن اليمنيين في منتصف القرن الخامس للميلاد، وينتهي بظهور الإسلام سنة ٦٢٢ م.

(٢) ـ عصر صدر الإسلام والدولة الأموية، ويبتدىء مع الإسلام وينتهي بقيام الدولة العباسيّة سنة ١٣٢ هـ.

(٣) ـ العصر العباسي، ومبدؤه قيام دولتهم ومنتهاه سقوط بغداد في أيدي التتـار سنة ٦٥٦ هـ.

(٤) ـ العصـر التركي، ويبتـدىء بسقوط بغـداد وينتهي عند النهضـة الحـديثـة سنـة ١٢٢٠ هـ.

(٥) ـ العصر الحديث، ويبتدىء باستيلاء محمد علي على مصر ولا يزال.

العرب ومواطنهم وطبقاتهم وقبائلهم المشهورة:

العرب أمة من الأمم التي اصطلح المؤرخون على أن يسموها سامية (نسبة إلى سام بن نوح) وهي البابلية والأشورية والعبرانية والفينيقية والآرامية والحبشية. امتهدت هذه الشعوب في الأصل مهداً واحداً نشأت فيه وتفرقت منه. وتعيين هذا المهد لا يزال موضع الخلاف وموضوع البحث: فبعض يقول إنه العراق، وبعض يرجح أنه جزيرة العرب، وآخرون يزعمون أنه الحبشة. ومهما يكن الخلاف في مهد الساميين فقد نزحوا منه في غابر الدهر، فسكن البابليون والأشوريون العراق، والفينيقيون سواحل سورية. والعبرانيون فلسطين، والأحباش الحبشة، والعرب شبه جزيرتهم. وهي واقعة إلى طرف الجنوب الغربي من آسيا. ويحدها من الشمال سورية، ومن الشرق الفرات وجهة من المحيط الهندي أيضاً، ومن الغرب البحر الأحمر. ثم يقسمها جبل السراة الممتد من اليمن إلى أطراف بادية الشام قسمين: غربياً وشرقياً؛ فالغربي يهبط من سفح ذلك الجبل إلى شاطىء البحر الأحمر فيسمى الغور لانخفاضه أو تهامة لحره والشرقي يصعد إلى أطراف العراق والسماوة فيسمى نجداً لارتفاعه، وما فصل بين الغور ونجد يدعونه الحجاز لحجزه بينهما. أما ما ينتهي به نجد في الشرق حتى يصل إلى الخليج العربي من بلاد اليمامة الكويت والبحرين وعمان فيسمى بالعروض لاعتراضه بين اليمن ونجد؛ وما يمتد وراء الحجاز إلى الجنوب يسمى اليمن إما لوقوعه على يمين الكعبة، وإما ليمنه.

وفي هذه الأقسام توزع الشعبان العربيان: شعب قحطان، وشعب عدنان. فأما القحطانيون فسكنوا اليمن وكانت لهم فيه عمارة عظيمة وحضارة زاهرة. فلما نَبَتْ بهم مرابعه تمزقوا في البلاد، فذهب من كهلان ثعلبة بن عمرو نحو الحجاز فغلب اليهود على يثرب، وكان من أعقابه الأوس والخزرج. ثم احتل حارثة بن عمرو وهو خزاعة، الحرم. ومال عمران بن عمرو نحو عمان، فبنوه أزد عمان. واستوطنت قبائل نصر بن الأزد تهامة وهم أزد شنوءة؛ ووقف زواد جفنة بن عمرو بالشام فأقام بها هو وبنوه فكان منهم الغساسنة. ونزل بنو لخم بالحيرة ومنهم نصر بن ربيعة أبو المناذرة. وأما العدنانيون فسكنوا الحجاز وما ياسره إلى ريف العراق، فأقامت بطون قريش في مكة وضواحيها، وبطون كنانة في تهامة، واحتلت ذبيان ما بين تيماء وحوران. وسكنت ثقيف الطائف، وهوازن شرقي مكة، ونزل بنو أسد شرقي تيماء وغربي الكوفة، وبنو تميم بادية البصرة. واستوطنت قبائل تغلب الجزيرة الفراتية. وحلت سائر بكر بن وائل طول الأرض من اليمامة إلى البحر، فأطراف سواد العراق فالأبلة، فهيت.

والمؤرخون يرجعون العرب إلى ثلاث طبقات:

بائدة: وهم الذين درست أخبارهم وطمست آثارهم، فلم يسجل لهم التاريخِ إلا

صفحات مشوهات لا تنفي ظناً ولا تثبت حقيقة. وأشهر قبائلهم: عاد وثمود وطَسمُ وجدِيسُ. ﴿فأما ثمودُ فأُهْلكوا بالطاغية. وأما عادٌ فأهلكوا بريح صَرصر عاتية﴾[1] وأما طسم وجديس فتفانوا كما يزعمون في حادثة نسائية خرافية.

وعاربة: وهم اليمنيون المنتمون إلى يعرب بن قحطان المذكور في التوراة باسم يارح بن يقطان. ويزعم العرب أنه أصل لسانهم، ومصدر بيانهم وبذلك يفتخر حسان بن ثابت في قوله:

تعلمتُمُ من منطق الشيخ يَعْرُبٍ أبينا فصرتم مُعربين ذوي نفْرِ
وكنتم قديماً مالكم غيرَ عُجمةً كلامٌ وكنتم كالبهائم في القفْرِ

ومن اليمنيين بطون حمير ـ وأشهرهم زَيد الجمهور وقضاعة والسكاسك. وبطون كهلان ـ وأشهرهم همدان وطيىء ومذحجُ وكندة ولخْم. ومن لخم بنو المنذر في الحيرة والأزْد. ومن الأزد الأوس والخزرج في المدينة والغساسنة في الشام. وكانت لحمير السيادة على اليمن فمنهم الملوك والأقيال.

ثم مستعربة: وهم ولد إسماعيل عليه السلام، نزل بالحجاز حوالي القرن التاسع عشر قبل الميلاد، ثم صاهر ملوك جُرهم، فكان له بنون وأعقابٌ ضلوا في مجاهل الزمن فلم يعرف التاريخ منهم على التحقيق إلا عدنان، وإليه ينتهي عمود النسب العربي الصحيح. وأشهر قبائل هذه الطبقة ربيعة ومُضر وأنمار وأياد. فمن ربيعة عبد القيس، ومنها بكر وتغلب ابنا وائل. ومن مضر انشعبت قيس عيلان وبطون اليأس بن مضر. فأما قيس عيلان فأشهر بطونها هوازن وغطفان؛ ومن غطفان عبس وذبيان ابنا بغيض. وأما أولاد الياس فآفترقوا، فمنهم بطون تميم بن مر، وهذيل بن مدركة، وبنو أسد بن خزيمة، وبطون كنانة بن خزيمة، ومن كنانة قريش: ثم انقسمت إلى بطون شتى. فمنهم جُمحُ وسهم ومخزوم وعبد الدار وعبد مناف. ثم كان من عبد مناف عبد شمس ونوفل والمطلب وهاشم، ومن هاشم عبد المطلب: وبنوه عشرة منهم عبد اللّه أبو الرسول ﷺ، وأبو طالب والد علي رضي اللّه عنه ثم العباس. فالعلويون ينتسبون إلى علي، والعباسيون إلى العباس. وأما الأمويون فليسوا من بني هاشم وإنما هم من بني عبد شمس أخيه.

وإلى هذه الطبقة يرجع الفضل فيما نتكلم به من لغة، وما نتحمل به من بيان، وما ندرسه من أدب، وما نعتقده من دين.

أحوال العرب الاجتماعية والسياسية والدينية والعقلية في الجاهلية:

إن لجو الإقليم أثراً طبيعياً قوياً في حياة أهله، فهو الذي ينهج لهم سَنَنَ معاشهم ونظام

---

(١) سورة: الحاقة، الآيتان: ٥ ـ ٦.

اجتماعهم، ويكوِّن الكثير الغالب من أخلاقهم وطباعهم. والعربية شبه جزيرة جافة قاحلة قلما يَجُودها الغيث وتوانيها العيون؛ فهي لا تصلح للزروع الدورية، ولا تلائم الحياة الحضرية. ومن ثَمَّ كان أهلها بدواً بالفطرة يعيشون تحت الخيام على رعي الأنعام فيَطعمون من لحمها ولبنها، ويكتسون بصوفها ووبرها، ويتتبّعون بها مواقع القَطر ورياض الأرض يُسيمونها فيها. ويرددونها بين أوديتها وفيافيها؛ إلا قريشاً فتحضروا لقيامهم على البيت الحرام، وإيلافهم رحلة اليمن والشام؛ وإلا القحطانيين لحظ ديارهم من الخصب والمطر، ووفرة ما تُغله أرَضوهم من الحب والثمر. فإذا أخلَفَت السماء وأمحلت وجوه الأرض أكل بعضهم بعضاً بالإغارة والغزو. وجريرة ذلك عليهم فساد القلوب ودوام الحروب وذهاب الأمن وتشعُّث الألفة. ولم يُنكب الجاهليون بمثل الحرب والجدب، فهم لذلك يتمدحون بالبأس والسماحة، ويتبجحون باللّسن والفصاحة، ويؤثرون الذكر ويئدون الأنثى، ويتكاثرون بالنفر العديد، ويعتزون بالقرابة الواشجة.

ثم كان إلْفِهم حياة الظعن والتجوال؛ وتوزع همهم بين الجدال والقتال، أن غلبت عليهم الحرية والعصبية والوحشية، فلم تكن لهم مدنية اجتماعية ولا حكومة سياسية ولا أنظمة عسكرية ولا فلسفة دينية. وإنما كان مجتمعهم مجتمع القبيلة والخيمة، لا مجتمع الشعب والأمة؛ والحكومة كانت لرؤساء العشائر يملكون بالإرث ويحكمون بالعرف، فلم تكن الجرْشِيّة كحكومة الإغريق، ولا ملكية كحكومة المصريين والفرس، اللهم إلا في الحيرة والشام فقد كان لهم ملوك متوجون ولكنهم غير مستقلين: فاللخميون في الحيرة يتبعون الأكاسرة، والغسانيون في الشام يتبعون القياصرة. وإذن فمعاني الحضارة والرأي العام والأرستقراطية والديمقراطية والإقطاع لا ألفاظ لها عند العرب والساميين جميعاً. والنظام العسكري حتى بعد الإسلام كان غير ثابت ولا منظم، لأن المرءوسية والتجرد عن الشخصية ـ وهما الركنان الأساسيان في العسكرية ـ يضادان إعجاب العربي بنفسه واعتداده بشخصه والدين كان دين بساطة وسذاجة وتقشف، فلم يكن للعرب ما كان للاغريق من تعدد الآلهة وضخامة الهياكل وإقامة التماثيل ووفرة الأساطير وفلسفة العقائد، وإنما كان بقية أثرية من دين إبراهيم جاءتهم من وراء القرون عن طريق الوراثة مشوهة لتطاول العهد وتحكم الجهالة وعدم القرار، فحالت في نفوسهم إلى عبادة الأصنام وتعظيم الأوثان ونصها على الكعبة تقرباً بها إلى الله على زعمهم. وهذه الوثنية كانت دين الكثرة من العرب. أما القلة فكان بعضها على اليهودية في اليمن وفي يثرب وما جاورها من أرض خيبر وتيماء، وبعضها على النصرانية بنجران والحيرة وفي قبائل طيىء والغساسنة بالشام.

أما الأسرة وهي نواة القبيلة فقد كان حالها أشبه بحال الأسرة المصرية الريفية اليوم: تتألف من الأبوين والأولاد والحفدة والرقيق. وكان سلطان الأب مطلقاً على أهله: يملك

عليهم الموت والحياة والبيع والانتفاء، فربما وأد ابنته خوف الفقر، وانتفى من أمَتِه خوف العار. وكان للزوجة المكانة السامية الثانية في الأسرة، يجلّها الزوج في نفسه، ويشاركها في أمره، ويتغنى باسمها في شعره، ويفخر الابن بنسبته إلى أمه كما يفخر بنسبته إلى أبيه. وكان عقد الزواج هو الرباط الغالب بين الرجل والمرأة، وللرجل وحده حق الطلاق ما لم يشترط عند العقد خلاف ذلك. ثم كان لهم أنواع أخرى من الزواج هي أشبه شيء بالمسافحة لا يعقدها إلا أولو الدعارة من الشباب. ويقرب من هذه الأنواع زواج كانت تعقده السيوف والأسنة. وذلك أن أحدهما يلقي رجلاً معه ظعينة وليس من قبيلته ولا من أحلافها، فيتقاتلان، فإذا قهره أخذها منه سبية واستحلها بذلك. وكانوا يعددون بين الزوجات إلى حد غير معروف، ويحلون التزوج من امرأة الأب ويحرمون البناء بالبنت والأخت والعمة والخالة. أما علاقة أبناء الأسرة بأبناء القبيلة فجماعها مدلول هذه الكلمة الجاهلية: (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) على ما بين أبناء العم من تنافس وتباغض. ولكن الواحد للقبيلة والقبيلة للواحد.

وأما حالهم العقلية فقد كان التبابعة في اليمن والمناذرة والغساسنة في الشمال على حظ من العلوم يدل عليه ما أقاموه من السدود، وأحيوه من الأرض، وعمروه من المدن ولكن درجة رقيهم، وحقيقة علومهم، لا تزالان سراً مطوياً في جوف الأرض ربما كشف عنه التنقيب عن الآثار بعد قليل.

أما العدنانيون فقد كسبتهم قوة الملاحظة، وكثرة التجارب، واضطرار الحاجة، طائفةً من العلم المبني على التجربة والاستقراء والوهم. فعرفوا الطب والبيطرة والخيل لاتصالها بالحرب؛ ولاحظوا الأنواء والنجوم والرياح لعلاقتها بالكلأ والغيث، وليهتدوا بها في ظلمات البر والبحر؛ وبرعوا في الأنساب والأخبار والأشعار، محافظة على عصبيتهم، وتحدثاً بمفاخرهم، وتخليداً لمآثرهم، ومهروا في الفراسة والقِيافة[1] ووصف الأرض، لكشف الدَّعي فيهم، وطلب الهارب منهم. ثم قادهم الجانب الروحي فيهم إلى الاعتقاد بالكِهانة والعرافة والزجر، ففزعوا إلى الكهان في أمراضهم، واستفتوا العرَّافين في أغراضهم، حتى ذهب الإسلام بكل ذلك.

وجملة القول أن المجتمع العربي خارج القبيلة كان مفككاً من الجهات السياسية والاقتصادية واللغوية، مرتبطاً من الجهات الخلقية والعقلية والأدبية. ولو ساغ لنا أن نحكم على العرب بمقتضى لغتهم وأدبهم لوجدنا لهم نفوساً كبيرة وأذهاناً بصيرة وحنكة خبيرة ومعارف واسعة كَوَّنوا أكثرها من نتاج قرائحهم وثمار تجاربهم؛ فإن لغتهم وهي صورة

---

(١) القيافة: هي الاهتداء إلى الهارب بآثاره.

اجتماعهم لم تدع معنى من المعاني التي تتصل بالروح والفكر والجسم والجماعة والأرض والسماء وما بينها إلا استوعبت أسماءه ورتبت أجزاءه. ووضع اللفظ للشيء دليل على وجوده وعلمه. ولعمري ما يكون التمدن اللغوي إلا بعد تمدن اجتماعي راقٍ في حقيقته وإن لم يَرْق في شكله، عام في أثره وإن لم يعم في أهله.